المحاضرة التاسعة: الهرمنيوطيقا الفلسفية

لعلّ الخاصية المميزة للفكر الفلسفي الغربي، خاصة بعد فترة الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، هي اتجاهه نحو التأويل واستغلال جميع حقول إرثه القديم. و قد بدأ هذا الاتجاه مع "شلايرماخر"(1768 – 1834) و بعده "دلتاي"(1833 - 1911) إلى أن أصبح يُطلق عليه فلاسفة الألمان اسم "هرمينوطيقا ". إلا أن مفهوم "الهرمنيوطيقا "كما نعرفه اليوم بوصفه إشكالية فلسفية خالصة لم يكن كذلك في العصور السابقة. بل تطور عبر مراحل، واتخذ في كل مرحلة دلالات ومعان تعبر كل واحدة منها على لحظة هامة من لحظات التأويل. وكلمة "هرمينوطيقا" ترجع في أصلها إلى الكلمة اليونانية Hermeneus" " و تعني الشارح أو المفسّر. وقد ارتبطت – كما ينقلها هوميروس- برسول الآلهة "هرمس" المكلّف بنقل رسائل "زيوس" إلى البشر. أي أنه أُوتي القدرة على إيضاح ما يجول في خاطر الآلهة للناس. و بعبارة أبسط يتكفّل بعملية الفهم و التفاهم بين الآلهة و الناس.

و يعرفها "شلايرماخر"بقوله: الهرمينوطيقا بوصفها فن الفهم لا وجود لها كمبحث عام، فليس هناك غير كثرة من الأفرع الهرمنيوطيقية المنفصلة". وقد كان التأويل في الأصل مقتصراً على تفسير الكتب المقدسة، لكن مجاله اتسع خلال القرن التاسع عشر ليشمل قضية التفسير النصي برمتها. وانشغلت الهرمنيوطيقا لفترة طويلة من الوقت بتحليل النصوص المكتوبة وبذلك فإنها كانت تعرف "بفن إدراك وتحديد المعنى المختبئ في النصوص. فقد انصبت التحليلات التأويلية القديمة على النصوص الشعرية مثل الالياذة والاوديسا وعلى النصوص الدينية كالكتاب المقدس. وكان ذلك بسبب الحاجة الملحة إلى مبحث جديد يتكفل بتقديم القواعد اللازمة للتفسير الصحيح للكتاب المقدس، وبالتالي رفع تفسير النصوص المقدسة و فقه اللغة إلى مصاف التقنية، أي تكنولوجيا لا تقتصر على مجرد تجميع عمليات لارابط بينها. وتتميز الهرمنيوطيقا عن التفسير بأنها منهج هذا التفسير و أصوله و أحكامه. ومن أهم رواد هذه الفلسفة:

أ-شلاير ماخر:

لم تكن وظيفة التأويل قبل شلايرماخر تحمل أي معنى منهجي. فقد كانت وظيفة التأويل تنحصر في المساعدة في الكشف عن طبيعة مفردات النص وقواعده أو المساعدة في فهم النصوص الدينية. لقد كانت الهرمنيوطيقا حينئذ لا تتعدى الانطباعات العابرة. أما شلايرماخر فقد حوّلها إلى منهج عام. فالتأويل ليس انطباعا عابرا، وإنما هو منهج يخضع لقانون عام يقوم على العلاقة بين الجزء والكل، أو بين الفردية والكلية أو بين الذات والموضوع. ويقوم هذا المنهج على فرضية بسيطة هي أن شكل التعبير يعكس بالضرورة الروح العامة للثقافة. وبذلك فقد أضحت الهرمنيوطيقا منهجا مستقلا هذا إن لم تكن قد تحولت إلى علم مستقل بذاته. الهرمينوطيقا هي فن الفهم عند شلاير ماخر والفهم عملية إعادة معايشة ما يفكّر فيه المؤلف، أي إعادة بناء الخبرة الذهنية التي مرّ بها المؤلف، بحيث يمكن أن يعيش القارئ ما عاشه المؤلف. و ليست هذه المعايشة تحليلا نفسيا للمؤلف بقدر ما هي إعادة بناء فكر معين من خلال شخص آخر. و بشكل آخر "ليست غايتنا تحديد دوافع المؤلف

السيكولوجية أو بواعث شعوره، بل إعادة تشييد الفكر نفسه الخاص بشخص آخر من خلال تأويل حديثه". و الفهم يقوم في أساسه على "سوء الفهم"، و سوء الفهم هو الذي يدفعنا إلى محاولة الفهم، و لا يكون ذلك إلا بالبحث عن القواعد و الشروط التي يتحدد بها هذا الفن. ومن ثم يكون شلاير ماخر قد تجاوز فكرة القواعد إلى البحث عن الشروط اللازمة للفهم. غير أن النص مهما كانت طبيعته فإنه لا بد و أن يكون على شكل لغة، هي التي تجعله شيئا ملموسا وقابلا للقراءة. ومن أجل فهمه و سبر أغوار معانيه نعتمد على قواعد اللغة كالنحو مثلا. عندئذ يمكن الحديث عن إمكانية إرساء قواعد الهرمينوطيقا بعامة، لأن معرفة فكر صاحب النص لا تحصل إلا باللغة، رغم أن شلاير ماخر لايكتفي بالتأويل اللغوي بل يتجاوزه إلى التأويل السيكولوجي أو التقني المتعلق بمعرفة مقاصد المؤلف من خلال نوع من التقمص التام الذي من خلاله نعيد تأسيس هذا الفكر. بل قد يتم فهم نص المؤلف اكثر مما فهمه صاحبه. و يلاحظ "ريكور" أن البرنامج التأويلي لشلاير ماخر يحمل في طياته البصمة الرومانسية و النقدية على السواء، الأولى بدعوته إلى علامة حية مع سيرورة الإبداع و الثانية في بناء قواعد فهم صالحة كونيا. النقدي يتعلق بمقاومة سوء الفهم باسم القول المأثور الشهير" يوجد التأويل حيثما يكون سوء الفهم" و الرومانسي هو خطة"فهم كاتب كما فهم نفسَه و ربما أحسن".

ب- **دلتاي**: (1833- 1911)

حاول دلتاي إحداث ثورة كوبرنيكية في العلوم الإنسانية أو ما كانت تُعرف بعلوم الروح،من خلال تأسيس علم تجريبي يتكفل بتحقيق نتائج إيجابية، رغم إيمانه بعد قدرة ما تعتمده العلوم الطبيعية فيحل مشكلات الحياة الإنسانية. و لعل هذا ما جعله يستبعد تماما أية نظرة ميتافيزيقية لفهم الظواهر الإنسانية. و بعبارة بسيطة كانت المشكلة عنده مُصاغة على النحو الآتي: أي صنف من الفهم ذلك الذي يلائم تفسير هذه الظواهر؟ أي أن المشكلة عنده مشكلة ابستيمولوجية و ليست مشكلة ميتافيزيقية. ولعلّ تأثره بكانط و هيجل هو الذي شجّعه على السعي إلى إيجاد فلسفة كان يرجو منها أن تفعل في علوم الروح ما فعلته المناهج التجريبية في علوم المادة. و مثلما كتب كانط "نقد العقل الخالص" الذي يروم إلى البحث في شروط إمكان المعرفة القبلية، ومن ثم تحديد الأسس الإبستيمولوجية للعلوم، شرع دلتاي هو الآخر في كتابة"نقد العقل التاريخي" ليضع الأسس الإبستيمولوجية للدراسات الإتسانية. وكان يريد أن يقوم بما قام به كانط لكن في التاريخ، فأكد في البدء أن فهم الإنسان لا يكون إلا بوصفه موجودا تاريخيا في جوهره، و أن وجوده لا يتحقق إلا في جماعة. أي أن البعد الحقيقي للإنسان هو البعد التاريخي، فينبغي إذن أن ندرس العقل الإنساني انطلاقا من هذه الزاوية لا غير. لأن ما هو منفصل عنه يمكن دراسته من خلال المشاهدة و الملاحظة المباشرة أو غير المباشرة، مثلما هو الحال في علوم الطبيعة، إذ تسطيع الذات أن تتواجه مع موضوع دراستها بواسطة ما تتمتع به من حواس، طالما أن هذه الظواهر، بل الطبيعة في ح ذاتها شيء غريب عنه. أما عندما يتعلق الأمر بالتاريخ و بالمجتمع فالحال مختلف، لأن الإنسان هنا محكوم بعالم الإنسان الذي لا يدركه إلا من الداخل. وعلى ذلك تصبح العلاقة بين الذات

والموضوع في العلوم الإنسانية علاقة مباشرة، لأن الموضوع هو التجربة الإنسانية الحية. و قد تكون المعرفة التاريخية أكثر الحقول رحابة بالنسبة لدلتاي، وهذا سرّ الإهتمام بها، لكن "بول ريكور" يذكر سببا آخر وهو أن الفترة التي تحمل فيها دلتاي التفكير كانت فترة ردّة على فلسفة هيجل، و تغوّل النزعة الوضعية التي أصبحت ترى في العلوم الطبيعية النموذج الوحيد للوضوح. وكأن فترة الإحراج التي عرفتها المعرفة وقتذاك، تطلبت نوعا من إنصاف المعرفة التاريخية، لذلك كان دلتاي يروم إلى إصلاح الإبستيمولوجيا ذاتها، لا مجرّد الدفاع عن الحقل التاريخ الذي اهتم به. يؤكد دلتاي من البداية أن الإنسان لا يعرف من الطبيعة إلا ظواهرها الفيزيائية، و إن اهتم بها فلأجل تحقيق أغراضه المتعددة و المتنوعة بوصفه يعيش بين أحضانها. لكنه مع ذلك يبقى غريبا عنها، أما إذا تعلق الأمر بالإنسان فتزول هذه الغربة، يقول ريكور: " و لا يُعدّ الإنسان جذريا بالنسبة للإنسان، لأنه يقدّم علامات عن وجوده الخاص. فهم تلك العلامات يعني فهم الإنسان". الإنسان في جوهره تاريخي لأنه يعيش في الزمان و تتحدد نشاطاته كلها في الحياة بهذا الزمان، وما ينشئه مع غيره من علاقات، ومع الطبيعة يتحدد هو الاخر بالزمان، فلا عجب إذن أن كانت علاقاته بالآخرين تاريخية، و حياته الشخصية تاريخية ومن ثم يصبح عالم الإنسان كله هو عالم التاريخ. يقول دلتاي:"...صحيح أن التاريخ يعرف أقوالا مفادها وجود قيمة أو معيار أو خير مطلق. وهذه الأقوال تظهر في كل مكان في التاريخ- مرة على أن ذلك صادر عن إرادة إلهية، ومرة أخرى بالإستناد إلى نظرة عقلية في الكمال، أو إلى نظام غذائي للعالم، أو إلى معيار- مقبولا قبولا كليا- لسلوكنا القائم على أساس عال على الوجود. بيد أن التجربة التاريخية تعرف العملية فقط، عملية إصدار هذه الأقوال، ولكنها لا تعرف شيئا عن صحتها المطلقة(المزعومة). و لما كانت تتابع عملية تشكل مثل هذه القيم المطلقة و الخبرات و المعايير، فإنها تلاحظ، بالنسبة إلى كثير منها،كيف أنتجتها الحياة و كيف أن التقدير المطلق أصبح هو نفسه ممكنا بفضل تحديد أفق العصر. ومن هناك ننظر إلى جماع الحياة في ملئ تحقيقاته التاريخية، و نلاحظ الكفاح السجال بين هذه الأقوال المطلقة بين بعضها و بعض. و السؤال عمّا إذا كان يمكن أن يُوضح ببيّنة منطقية، اندراج التجربة تحت أمثال هذه المبادئ المطلقة- و هي من غير شك حقيقة تاريخية- يجب أن يردّ إلى عامل في الإنسان كلّي و غير محدود زمانيا- هذا السؤال يفضي إلى الأعماق النهائية للفلسفة المتعالية، التي تقوم وراء الدائرة التجريبية للتاريخ، مما لا تستطيع حتى الفلسفة نفسها أن تنتزع فيه جوابا أكيدا".

ومعنى هذا أنه حتى الفلسفة محكومة بطرق تجليها في التاريخ، وكل حل لمشكلات الفلسفة إنما يرتبط بالإطار الزماني الذي قُدم فيه. فلا وجود لمبدأ يتجاوز الإنسان أو فوْق إنساني، لذا فإن موضوع العلوم الإنسانية هو الحياة الإنسانية،و فهم الحياة الإنسانية ينبغي ألا يقوم على مقولات خارجة عن الحياة، بل على ما هو من صميمها، لأن ما شيّده لوك و هيوم و كانط لا يجري في عروقه دم حقيقي، ما دام أن هؤلاء يحصرون نطاق المعرفة في ملكة الإدراك على نحو منفصل عن الشعور و الإرادة. لذلك فالحياة ليست مسألة هامة من مسائل الفلسفة، بل هي الموضوع الوحيد للفلسفة، إذ لا شيء وراء الحياة مثل "الشيء في ذاته" أو

"الصور الأفلاطونية"، أو "المعاني الميتافيزيقية". الفيلسوف جزء من الحياة و لا يمكنه فهمها إلا من الداخل. وكل تجربة نعانيها في الحياة تدخل ضمن الحياة و لو كان مصدرها الإحساس.